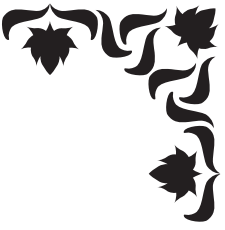

قسم البدايات

obeikandl.com

فأما قسم البدايات فهو عشرة أبواب وهى:

اليقظة، والتوبة، والمحاسبة، والإنابة، والتفكر، والتذكر، والاعتصام، والفرار، والرياضة، والسماع.

باب اليقظة

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ ...﴾[1].

القومة لله هى اليقظة[2] من سنة الغفلة

والنهوض من ورطة الفترة.

وهى أول ما يستنير قلب العبد بالحياة

لرؤية نور التنبيه[3].

واليقظة هى ثلاثة أشياء:

الأول: لَحْظ القلب إلى النعمة

على الإياس من عـــدّها ... والوقـــوف على حدّها

والتفرّغ إلى معرفة المنّة بها ... والعلم بالتقصير فى حقها

---

(١) سورة سبأ. الآية رقم ٤٦.

(٢) اليقظة: هى انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، واليقظة أول منازل العبودية، واليقظة تعين على السلوك: «مدارج السالكين لابن القيم ص ٩٤».

(٣) يريد أن يقول: إن اليقظة الصادقة هى القومة والنهوض من حضيض الغفلة لاستنارة قلبه بهواتف الحق ونور التنبيه. «انظر التمكين فى شرح منازل السائرين» أبو الفيض المنوفى.

obeikandl.com

والثانى: مطالعة الجناية

والوقوف على الخطر فيها . . . والتشـــمّر لتـــدارُكـــها

والتخـــلّص من ربقــها . . . وطلب النــاخاة بتمحيصها

والثالث: الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان فى الأيام

والتنصّل عن تضييعها . . . والنظـــر إلى الضـــن بهـا

ليُتـــدارك فائتـــها . . . ويُـعْـــمَـــر باقـــيـــها

فأما معرفة النعمة فإنها تصفو بثلاثة أشياء:

بنور العقل

وشَيْم برق المنّة

والاعتبار بأهل البلاء(١).

وأما مطالعة الجناية: فإنها تصحّ بثلاثة أشياء:

بتعظيم الحق

ومعرفة النفس

وتصديق الوعيد(٢).

---

(١) معرفة النعمة إنها تصفو بـثلاثة أشياء: بنور العقل أى بإدمان الفكر فى ملكوت السموات والأرض وفى مواهب الله على النفس أى النعم.

وقوله: وبشيم برق المنة أى ملاحظة المنن الواصلة من الحق إلى العبد.

والاعتبار بأهل البلاء: أى الذين استدرجهم الله فأولاهم من النعم الكثير.

(٢) الجناية المقصود مطالعتها: هى التقصير فى شكر النعمة والقيام بواجب الخدمة، فإذا تيقظ قلب العـبد لذلك أدرك الخطر منه أى فى جنايـة التقـصير. وهذا يـدعوه للتـشمير إلى تداركها.

obeikandl.com

وأما معرفة الزيادة والنقصان فى الأيام فإنها تستقيم بثلاثة أشياء:

بسماع العلم

وإجابة دواعى الحُرمْة

وصحبة الصالحين.

وملاك ذلك كله خلع العادات[1].

* * * * *

(١) معرفة الزيادة والنقصان. تستقيم بثلاثة أشياء: بالعلم. لأن العلم أساس كل طاعة وأول كل معرفة.

وأما إجابة داعى الحرمة، أى خشية الحق واحترام أوامره.

وأما خلع العادات: فالمراد الابتعاد عن العادات السيئة.

obeikandl.com

باب التوبة

قال الله عز وجل: ﴿ ...وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[1].

فأسقط اسم الظلم عن التائب.

والتوبة لا تصح إلا بعد معرفة الذنب.

وهى أن تنظر فى الذنب إلى ثلاثة أشياء:

إلى انخلاعك من العصمة حين إتيانه

وفرحك عند الظفر به

وقعودك على الإصرار عن تدركه

مع يقينك بنظر الحق إليك.

وشرائط التوبة ثلاثة أشياء:

الندم . . . والاعتذار . . . والإقلاع[2].

وحقائق التوبة ثلاثة أشياء:

تعظيم الجناية . . . واتهام التوبة . . . وطلب إعذار الخليقة[3].

---

(١) سورة الحجرات. الآية رقم ١١.

(٢) حقيقة التوبة: الندم على ما سلف منه فى الماضى، والإقلاع عنه فى الحال والعزم على أن لا يعاوده فى المستقبل.

(٣) يريد بالحقائق: ما يتحقق به الشىء وتتبين به صحته وثبوته كما قال النبى ﷺ لحارثة: «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟».

وأما تعظيم الجناية: فإنه إذا استهل بها لا يندم عليها، وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه.

وأما اتهام التوبة: فلأنها حق عليه.

وأما طلب إعذار الخليقة: فله وجهان، وجه محمود، ووجه مذموم «ابن القيم».

obeikandl.com

وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء:

تمييز التقيّة من العزة . . . ونسيان الجناية . . . والتوبة من التوبة أبدًا

لأن التائب داخلٌ فى الجميع من قوله تعالى: ﴿ ... **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا** ... ﴾(١).

فأمر التائب بالتوبة.

ولطائف سرائر التوبة ثلاثة أشياء:

أولها: أن تنظر بين الجناية والقضية

فتتعرف مراد الله فيها . . . إذ خلاك وإتيانها

فإن الله عز وجل إنما يخلى العبد والذنب لأحد معنيين:

أحدهما: أن تُعرَف عزته فى قضائه . . . وبره فى ستره

وحلمه فى إمهال راكبه . . . وكرمه فى قبول

العذر منه . . . وفضله فى مغفرته

والثانى: ليقيم على العبد حجة عدله

فيعاقبه على ذنبه بحجته.

واللطيفة الثانية: أن تعلم أنّ طالب البصير الصادق سيئته لم يُبق له حسنةً بحالٍ

لأنه يسير بين مشاهدة المنة وتطلب عيب النفس والعمل.

واللطيفة الثالثة: أن مشاهدة العبد الحُكم

لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة

لصعوده من جميع المعانى إلى معنى الحُكم(٢).

(١) سورة النور. الاية رقم ٣١.

(١) النظر إلى الجناية والمعصية وذلك من وجهة عظمها وفظاعة إثباتها لا من جهة تقديرها من الله تعالى، فإن الله ما أخلى العبد. وإتيان المعصية إلا لأن يعرف العبد عزة ربه فى قضائه ويعرف بره فى ستره ويدرك حلمه فى إمهاله.

obeikandl.com

فتوبة العامة لاستكثار الطاعة

فإنه يدعو إلى ثلاثة أشياء:

إلى جحود نعمة الستر والإمهال

ورؤية الحق على الله

والاستغناء الذى هو عين الجبروت والتوثب على الله[1].

وتوبة الأوساط من استقلال المعصية

وهو عين الجرأة والمبارزة

ومحض التزيّن بالحميّة

والاسترسال للقطيعة[2].

وتوبة الخاصة من تضييع الوقت

فإنه يدعو إلى دَرَك النقيصة

ويطفئ نور المراقبة

ويكدّر عين الصحبة[3].

---

(١) وذلك لأن العبد خطاء وأن الكمال لله وحده، فيمهلمه الله فى خطئه عن عقابه سترا له عسى أن يحاسب نفسه، فإن عمى العبد عن ذلك رأى أن له حقا بطاعته وذلك يكون استغناء عن عفوه وهو ضرورة كما يقول الشيخ. عين الجبروت والتوثب على الله فى حقه من حيث إن الله مطلق الثواب والعقاب والعفو والستر والمغفرة. فيجب على عوام المطيعين أن يتوبوا من رؤية تلك التوبة التى تورطهم فى المعصية «المنوفى».

(٢) توبة الأوساط أى أواسط الناس يجب أن تكون توبتهم من استقلال المعصية أى استصغارها مع فظاعتها بالنسبة للطاعة مهما كانت فى قلة أو كثرة.

(٣) هذه دعوة أن تكون من تضيع الأوقات فإن لكل وقت عملا، فإذا لم يقم العبد بكل عمل فى وقته فقد ضيع ذلك الوقت.

obeikandl.com

ولا يتم مقام التوبة

إلا بالانتهاء إلى التوبة ممّا دون الحق

ثم رؤية عسّلة تلك التوبة

ثم التوبة من رؤية تلك العسّلة.

* * * * *

obeikandl.com

باب المحاسبة

قال الله عز وجل: ﴿ ... **اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ... ﴾[1].

وإنما يُسلك طريق المحاسبة بعد العزيمة على عقد التوبة[2].

والعزيمة لها ثلاثة أركان:

أحدها: أن تقيس بين نعمته وجنايتك

وهذا يشق على من ليس له ثلاثة أشياء:

نور الحكمة... وسوء الظن بالنفس... وتمييز النعمة من الفتنة[3].

والثانى: تمييز ما للحق عما لك أو منك

فتعلم أن الجناية عليك حجة

والطاعة عليك منة

والحكم عليك حجة... ما هو لك معذرة[4].

---

(١) سورة الحشر. الآية رقم ٨.

(٢) فمن أراد سلوك طريق الله حدثت يقظته وليس بعد اليقظة إلا المحاسبة المؤدية إلى التوبة كما أن التوبة إذا حدثت فلا بد من حال حدوثها من المحاسبة. فالمحاسبة أمر يجب أن يكون واقعا بعد التوبة.

(٣) وهذا معناه: أنه يجب على المقايس بين نعم الله ومعاصيه: أن ينظر بعين الحكمة والتدبر، وهو حائز لمقدار كبير من سوء الظن بالنفس وليس هذا فقط، بل إنه يدمن التفكير فى التمييز بين النعمة والفتنة لتكرار طروئها عليه.

(٤) بمعنى أن تميز ما لله عليك من ضمنها الطاعات والمراضى.

obeikandl.com

والثالث: أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهى عليك

وكل معصية عيّرت بها أخاك فهى إليك

ولا تضع ميزان وقتك من يدَيْك[1].

* * * * *

(١) المراد بهذا ألا يخـرج سالك طريق الحق عن حدود الاسـتقامة الـلائقة به وسلوك الطريق المستقيم.

obeikandl.com

باب الإنابة[1]

قال الله عز وجل: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ...﴾[1].

الإنابة ثلاثة أشياء:

الرجوع إلى الحق إصلاحا ... كما رُجع إليه اعتذارًا

والرجوع إليه وفاءً ... كما رُجع إليه عهدًا

والرجوع إليه حالاً ... كما رُجع إليه إجابةً

وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحًا بثلاثة أشياء:

بالخروج من التبعات

والتوجع للعثرات

واستدراك الفائتات[2].

وإنما يستقيم الرجوع إليه وفاءً بثلاثة أشياء:

بالخلاص من لذّة الذنب

وبترك استهانة أهل الغفوة تخوفًا عليهم مع الرجاء لنفسك

وبالاستقصاء فى رؤية علل الخدمة[3].

---

(١) سورة الزمر. الآية رقم ٥٤. الإنابة هى الرجوع أو قل: سرعة الرجوع إلى الله فى جميع الحالات.

(٢) ومعنى استدراك الفائتات: أن يستدرك التائب المنيب ما عسى أن يكون قد فاته من طاعة فيعزم على جبرها فى بقية عمره «التمكين للمنوفى».

(٣) ومعنى ذلك: أن يتخلص من الآثار التى قد تظل فى نفسه من لذائذ الذنوب فإنها موبقة.

obeikandl.com

وإنما يستقيم الرجوع إليه حالا بثلاثة أشياء:

بالإياس من عملك

ومعاينة اضطرارك

وشَيْم برق لطفه بك.

* * * * *

obeikandl.com

باب التفكر

قال الله عـز وجل: ﴿... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

اعلم: أن التفكر تلمُّس البصيرة لاستدراك البغية.

وهو ثلاثة أنواع:

فكرة فى عين التوحيد

وفكرة فى لطائف الصنعة

وفكرة فى معانى الأعمال والأحوال.

فأما الفكرة فى عين التوحيد

فهى اقتحام بحر الجحود

لا يُنجى منه إلا الاعتصام بضياء الكشف

والتمسك بالعلم الظاهر.

وأما الفكرة فى لطائف الصنائع

فهى ماءٌ يسقى زرع الحكمة.

وأما الفكرة فى معانى الأعمال والأحوال

فهى تُسهّل سلوك طريق الحقيقة.

وإنما يُتخّلص من الفكرة فى عين التوحيد بثلاثة أشياء:

---

(١) سورة النحل. الآية رقم ٤٤.

obeikandl.com

بمعرفة عجز العقل

وبالإياس من الوقوف على الغاية

وبالاعتصام بحبل التعظيم.

وإنما تُدرك لطائف الصنائع بثلاثة أشياء:

بحسن النظر فى مبادئ المنن

والإجابة لدواعى الإشارات

وبالخلاص من رق الشهوات.

وإنما يوقف بالفكرة على مراتب الأعمال والأحوال بثلاثة أشياء:

باستصحاب العلم

واتهام المرسومات

ومعرفة مواقع الغِيَر.

* * * * *

obeikandl.com

باب التذكر

قال الله عز وجل: ﴿... وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾(١).

التذكر فوق التفكر

فإن التفكر طلب

والتذكر وجود(٢).

وأبنية التذكر ثلاثة أشياء:

الانتفاع بالعظة

واستبصار العبرة

والظفر بثمر الفكرة

وإنما يُنتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء:

بشدة الافتقار إليها

والعمى عن عيب الواعظ

وبذكر الوعد والوعيد.

وإنما تُستبصر العبرة بثلاثة أشياء:

بحياة العقل

ومعرفة الأيام

والسلامة من الأغراض.

---

(١) سورة غافر. الآية رقم ١٣.

(٢) ومعنى قول الشيخ: أن التفكر طلب والتذكر وجود ذلك؛ لأن التذكر يأتى بعد التفكر فهو أعمق منه غورا وأكثر تحصيلا.

obeikandi.com

وإنما تُجنَى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء:

بقصر الأمل

والتأمل فى القرآن

وقلة الخلطة والتمنى والتعلق والشبع والمنام.

* * * * *

obeikandl.com

باب الاعتصام

قال الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ...﴾[1].

﴿... وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ ...﴾[2].

الاعتصام بحبل الله: هو المحافظة على طاعته مراقبا لأمره

والاعتصام بالله: هو الترقى عن كل موهوم والتخلص من كل تردد.

والاعتصام على ثلاث درجات:

اعتصام العامة بالخبر، استسلامًا وإذعانًا

بتصديق الوعد والوعيد

وتعظيم الأمر والنهى

وتأسيس المعاملة على اليقين والإنصاف

وهو الاعتصام بحبل الله.

واعتصام الخاصّة بالانقطاع

وهو صون الإرادة قبضا

وإسبال الخُلق على الخلق بسطا

ورفض العلائق عزمًا

وهو التمسّك ﴿... بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ... ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران. الآية رقم ١٠٣.

(٢) سورة الحج. الآية رقم ٧٨.

(٣) سورة البقرة. الآية رقم ٢٥٦.

obeikandl.com

واعتصام خاصة الخاصة بالاتصال

وهو شهود الحق تفريدا بعد الاستخذاء له تعظيمًا

والاشتغال به قربًا

وهو الاعتصام بالله.

* * * * *

obeikandl.com

باب الفرار

قال الله عز وجل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ... ﴾[1].

الفرار هو الهرب مما لم يكن إلى ما لم يزل[2].

وهو على ثلاث درجات:

فرار العامة من الجهل إلى العلم عقدًا وسعيًا

ومن الكسل إلى التشمير حذرًا وعزمًا

ومن الضيق إلى السعة ثقةً ورجاءً.

وفرار الخاصة من الخبر إلى الشهود

ومن الرسوم إلى الأصول

ومن الحظوظ إلى التجريد.

وفرار خاصة الخاصة مما دون الحق إلى الحق

ثم من شهود الفرار إلى الحق

ثم الفرار من الفرار إلى الحق.

* * * * *

(١) سورة الذاريات. الآية رقم ٥٠.

(٢) الفرار: هو الهرب مما لم يكن إلى ما لم يزل. يريد الفرار من الأغيار.

obeikandl.com

باب الرياضة

قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ...﴾[1].

الرياضة تمرين النفس على قبول الصدق.

وهى على ثلاث درجات:

رياضة العامة: تهذيب الأخلاق بالعلم

وتصفية الأعمال بالإخلاص

وتوفير الحقوق فى المعاملة.

ورياضة الخاصة: حسم التفرّق

وقطع الالتفات إلى المقام الذى جاوزه

وإبقاء العلم يجرى مجاريه.

ورياضة خاصة الخاصة: تجريد الشهود

والصعود إلى الجمع

ورفض المعارضات والمعاوضات.

* * * * *

(١) سورة المؤمنون. الآية رقم ٦٠.

obeikandl.com

باب السماع

قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ ...﴾[1].

نكتة السماع حقيقة الانتباه.

وهو على ثلاث درجات:

سماع العامة ثلاثة أشياء:

إجابة زجر الوعيد رعةً

وإجابة دعوة الوعد جهدًا

وبلوغ مشاهدة المنّة استبصارًا.

وسماع الخاصة ثلاثة أشياء:

شهود المقصود فى كل رمز

والوقوف على الغاية فى كل حس

والخلاص من التلذذ بالتفرق.

وسماع خاصة الخاصة

سماعٌ يغسل العلل عن الكشف

ويصل الأبد بالأزل

ويرد النهايات إلى الأوّل.

* * * * *

(١) سورة الأنفال. الآية رقم ٢٣.

obeikandl.com